دور علماء المغرب الأوسط في تنشيط الحياة الثقافية بمملكة غرناطة

The Role of the Scholars of the Middle Maghreb to Revitalize the Cultural Life under the Reign of Granada

د. عبد القادر بوحسون[1]، جامعة الدكتور الطاهر مولاي سعيدة، Abdelkader.bouhassoun@univ-saida.dz

تاريخ الاستلام: 2021/04/23	تاريخ القبول: 2021/07/05	تاريخ النشر: 2021/08/07

الملخص:

اشتهر المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ببروز عدد هام من العلماء ممن كانت لهم شهرة كبيرة في العالم الإسلامي، وساهموا مساهمة واضحة في ازدهار الحياة الثقافية ببلدهم لا سيما في عهد بني زيان، بيد أن دورهم العلمي لم يقتصر على المغرب الأوسط فحسب وإنما تعداه للبلدان التي حلوا واستوطنوا بها وخاصة بلاد الأندلس.

ومن خلال مقالنا هذا المعنون ب: دور علماء المغرب الأوسط في تنشيط الحياة الثقافية بالأندلس خلال عهد بني الأحمر، سنحاول إبراز إسهامات عدد هام من أولئك العلماء الذين ساهموا في تنشيط وإثراء الحياة الثقافية بدولة بني الأحمر سواء بمصنفاتهم أو بالمناصب التي تقلدوها بغرناطة لاسيما في مجال التعليم والخطابة والقضاء...

كلمات مفتاحية: المغرب الأوسط، الأندلس، غرناطة، العلماء، الحياة الثقافية.

Abstract:

The middle Maghreb was famous, during the medieval era, for the emergence of a large number of scholars s who were of great fame in the Islamic world, and made a clear contribution to the prosperity of the cultural life in their country, especially in the era of Banū Zayān. However, their scientific role was not limited to the Middle Maghreb, but also to the conquered countries where they settled, especially in the territory of al-Andalus.

In this article, we will try to highlight the role of a significant number of scholars who have contributed to the revitalization and enrichment of cultural life in the state of Banū Nasr, whether through their works or the positions they held in Granada, especially in the field of education, rhetoric and the judiciary ...

Keywords: middle Maghreb, Andalusia, Granada, scholars, cultural life.

[1] بوحسون عبد القادر، جامعة سعيدة، abdelkder.bouhassoun@univ-saida.dz.

مقدمة:

عرف المغرب الأوسط في العصر الوسيط ازدهارا ملحوظا في مجالات حضارية متعددة، لاسيما المجال العلمي بسبب عوامل وأسباب عديدة منها: دور الحكام وتشجيعهم للعلم والمعرفة وحتى المشاركة في هذا المجال بمصنفاتهم وأشعارهم. بالإضافة إلى تشييدهم لمختلف المؤسسات العلمية من مساجد وزوايا ومدارس، فأضحت بعض مدنهم حواضر علمية تستهوي الطالب والعالم على حد السواء، فساهم ذلك في بروز عدد معتبر من أعلام المغرب الأوسط ممن أضحت لهم شهرة كبيرة في العالم الإسلامي، و ساهموا مساهمة واضحة في إثراء الحياة الثقافية والفكرية بالمغرب الأوسط لاسيما في عهد دولة بني زيان، و هي الدولة التي ازدهر بها الفكر وأخصبت الحضارة وتطور العمران واشتهرت حينئذ البلاد بالعديد من رجالات الفكر والسياسة والثقافة والأدب مما جعل عاصمتها تلمسان آنذاك مدينة الفن والتاريخ بامتياز، ولا تقل أهمية وشأنا عن باقي الحواضر العلمية بالمغرب والمشرق الإسلاميين.

وقد ذكرت لنا كتب التراجم ومختلف المصادر المغربية والمشرقية الكثير من هؤلاء الأعلام، وأشادت بهم وبعلمهم ومصنفاتهم في مختلف العلوم النقلية والعقلية، ونظرا لكون العالم لا يرتبط دوره وتأثيره بمجال جغرافي محدد فإن الأدوار الكبير ة التي أداها هؤلاء العلماء لم تقتصر على المغرب الأوسط وعاصمته تلمسان فحسب، وإنما تعداها إلى مختلف البلدان والحواضر التي حلوا واستوطنوا بها، ولعل أهمها بلاد الأندلس وبخاصة مملكة غرناطة (دولة بني الأحمر)، وهي الدولة التي زامنت الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط.

فما هي الأدوار التي قدمها علماء المغرب الأوسط بمملكة غرناطة؟

وماهي العوامل التي ساعدت على استقطاب علماء المغرب الأوسط نحو غرناطة؟

ومن هم أبرز هؤلاء العلماء؟

وللموضوع أهمية كبيرة كونه ينفض الغبار عن ثلة من العلماء الذين أفنوا حياتهم في خدمة العلم والدين في بلدهم المغرب الأوسط والبلدان التي ارتحلوا إليها واستوطنوا بها ولا سيما غرناطة عاصمة الأندلس خلال الفترة المدروسة، ورغم أهمية الموضوع من جهة والأدوار الكبيرة لأولئك العلماء إلا أن أجيال اليوم لا تعرف الكثير عن هؤلاء العلماء ومساهماتهم العلمية، مما شجعنا على البحث في هذا الموضوع رغم وجود دراسات سابقة قريبة من الموضوع سواء كانت رسائل تخرج أو مقالات علمية اعتمدنا عليها في استكمال هذا المقال.

وقبل التعريف بهؤلاء العلماء وإبراز أدوارهم العلمية لابد من تعريف مقتضب لمملكة غرناطة لإحاطة القارئ بالإطار الزماني والمكاني لموضوع الدراسة.

1.التعريف بمملكة غرناطة:

إن مملكة غرناطة أو دولة بني الأحمر أو بني نصر هي الدولة التي أسسها محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر سنة 635هـ/ 1238م[1]، والذي اتخذ من مدينة غرناطة عاصمة لحكمه، وانحصرت حدود هذه الدولة في جنوب الأندلس حيث ضمت ثلاث ولايات كبرى وهي: غرناطة ألمرية ومالقة، وهي تعد آخر معقل للمسلمين ببلاد الأندلس،

تمكنت رغم الظروف السياسية والعسكرية الصعبة من الصمود ولو لفترة من الزمن في وجه الإسبان إلى أن سقطت سنة 897هـ/1492م بعد حصار دام سبعة أشهر متتالية وصلت فيه الأوضاع إلى الكارثية، مما جعل حاكم غرناطة وأعيانها يرضخون للمفاوضات ويضطرون لقبول معاهدة التسليم[2].

تعاقب على حكم هذه الدولة عدد من الحكام نذكر منهم: محمد بن يوسف بن الأحمر الذي حكم ما بين(629.671هـ/1232 .1272م) المعروف بالشيخ وهو مؤسس الدولة ومحمد الثاني المعروف بالفقيه لاهتمامه بمجال الفقه، والذي حكم ما بين سنتي: (671.701هـ/1272.1301م) وكذلك يوسف الأول أبو الحجاج الغالب بالله (733.755هـ/1333.1354م) والغني بالله محمد الخامس الذي حكم ما بين سنتي: (755 .760 هـ/ 1354 .1359م)[3]، وملوكا

آخرين تفاوتت فترة حكمهم ما بين القوة والضعف، أما آخر سلاطينها فهو أبو عبد الله محمد الصغير الذي دامت فترة حكمه من سنة 892هـ/1487م إلى سنة 892هـ/1492م، وفي عهده حاصر الإسبان عاصمته واضطر إلى تسليمها مقابل شروط لم يحترمها الإسبان فيما بعد، وبسقوط غرناطة انتهى الحكم الإسلامي بالأندلس الذي دام كثر من ثمانية قرون[4].

وعموما ما يلاحظ على هذه المملكة أنها ومنذ تأسيسها إلى سقوطها عاشت صراعا طويلا ومريرا مع الممالك النصرانية بشبه الجزيرة الآيبيرية، وبالموازاة مع تدهور الأوضاع السياسية والعسكرية إلا أن الحركة العلمية والثقافية بصفة عامة عرفت ازدهارا كبيرا في جميع مجالاتها، والدليل على ذلك بروز عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم ممن بلغت شهرتهم مشارق الأرض ومغاربها، وأضحت الأندلس من خلالهم جسرا ثقافيا ما بين المغرب والمشرق الإسلاميين من جهة وما بين الشرق و الغرب من جهة أخرى، وربما مرد هذا الازدهار بالدرجة الأولى إلى طبيعة أهلها المحبة للعلم والعلماء حيث أقبلوا على مختلف العلوم والفنون[5]، يضاف إلى ذلك مختلف العوامل الأخرى المساهمة في الازدهار الثقافي كدور الحكام والمؤسسات العلمية وغيرها، وهو ما جعل غرناطة تستقطب العديد من علماء المسلمين وغير المسلمين ومن بينهم علماء المغرب الأوسط.

2.عوامل استقطاب غرناطة لعلماء المغرب الأوسط:

هناك عوامل عديدة ساهمت في حركة العلماء بصفة عامة بين المغرب الأوسط والأندلس، وشجعتهم على الاستقرار والعمل، ولعل أبرز تلك العوامل نذكر:

- **القرب الجغرافي:**

أدى العامل الجغرافي دورا هاما في تسهيل عملية الاتصال بين القطرين[6]،فلطالما كانت الأندلس تعتبر امتدادا طبيعيا لبلاد المغرب، وتكاد تُجمع المصادر الجغرافية أن هذا الإقليم (الأندلس) هو جزء من بلاد المغرب وآخر المعمور منه[7]، ونظرا لسهولة الاتصال بين عدوتي المغرب والأندلس ارتبطتا منذ العهود الأولى للفتح الإسلامي بعلاقات متينة (السياسية، الاقتصادية، الثقافية...)

وحينما نتحدث عن الموقع لا ننسى عامل مهم جدا وهو دور المراسي التي كانت بمثابة الشريان الذي يربط الدولتين مثل : مراسي مالقة[8]، ألمرية، المنكب[9] من جانب الأندلس و مراسي هنين[10] ووهران ، أرشكول[11] و المرسى الكبير[12]من جانب المغرب الأوسط[13].

- **تميز مختلف العلاقات بين دولة بني الأحمروالدولة الزيانية:**

سواء العلاقات السياسية أو التجارية أو الثقافية مما انعكس إيجابا على الحياة الفكرية و حركة العلماء بين البلدين[14]، حيث حرص سلاطين بني نصر على توثيق صلاتهم ببني زيان، مثل السلطان النصري محمد الفقيه الذي وثق علاقاته السياسية بيغمراسن بن زيان، كما كانت علاقات المغرب الأوسط بالأندلس في عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني متميزة جدا، حيث حرص هذا الأخير على دعم الأندلس في حدود الإمكانيات المتاحة له، وربما لولا انشغال الزيانيين بثورات القبائل المعارضة لهم من جهة، وهجمات الحفصيين والمرينين من جهة أخرى لكانت العلاقات السياسية أكثر تميزا[15].

أما العلاقات التجارية فكانت متميزة، ومن أبرز مظاهر تميزها حجم التبادل التجاري الذي كان يتم بين البلدين عن طريق موانئ الدولتين، فكانت الأندلس الممول الرئيسي للمغرب الأوسط بمختلف المصنوعات الاندلسية مثل الأقمشة، والفخار، والورق...، بينما زود المغرب الأوسط الأندلس بالمنتوجات الزراعية وفي مقدمتها القمح[16].

- **الوحدة المذهبية:**

ونقصد بها سيادة مذهب واحد وهو المذهب المالكي بالأندلس والمغرب الأوسط وهو عامل مهم جدا، حيث ساهم بشكل مباشر في تمتين الروابط الثقافية بين البلدين وتشجيعها، وانعكس إيجابا على حركة العلماء بين البلدين[17]،

إذ شجعت تلك الوحدة العلماء على التنقل بين الحاضرتين، فالعالم المالكي عند حلوله بدولة على نفس مذهبه يجنبه ذلك الكثير من الأمور المتعلقة بالتضييق على بعض المذاهب، كما يساعده ذلك على إيجاد منصب سواء في التدريس، القضاء، الفتوى، الخطابة، الكتابة وغيرها من الوظائف الهامة في الدولة، والتي كان يشترط فيها سواء بالمغرب الأوسط أو الأندلس الانتساب للمذهب المالكي أو على الأقل الحكم والعمل به.

ولنا في تاريخ الدولتين الكثير من النماذج حول ذلك بحيث انتقل عدد من العلماء بين القطرين وساهموا في تمتين الروابط والعلاقات الثقافية مثل ابن خطاب المرسي الأندلسي الكاتب والأديب المشهور الذي استعمل في الكتابة السلطانية بغرناطة ثم غادرها إلى تلمسان[18]، ونزل على سلطانها يغمراسن بن زيان الذي عينه كاتبا له[19]، فنقل خبراته إلى تلمسان وساهم بقسط وافر في ازدهار الحياة الأدبية بها، والأمر نفسه يقال على ابن خميس التلمساني شاعر المائة السابعة[20]، والذي ولاه السلطان الزياني أبو سعيد بن يغمراسن ديوان الإنشاء ولازم التدريس بالمغرب الأوسط والأقصى[(21)]، لينتقل بعدها إلى غرناطة ويشتغل بالتدريس هنالك،وساهم مساهمة فعالة في نشاط الحركة الأدبية من خلال قصائده البديعة والتي كانت أغلبها حول موطنه الأصلي تلمسان[(22)]، وكان بمثابة الجسر الذي يربط المغرب الأوسط بالأندلس ثقافيا[23].

- **الرحلات العلمية:**

تعد الرحلات العلمية شرطا أساسيا في طلب العلم وتحصيله في ذلك الزمان، ولذلك حرص علماء المغرب الأوسط على التنقل بين مختلف الحواضر العلمية بالعالم الإسلامي، ومنها غرناطة للقاء أكابر العلماء للاستزادة والأخذ عنهم، وكذا الاشتغال في المناصب الهامة كالقضاء والخطابة والتدريس والفتوى وغيرها[24].

وقد سلبت غرناطة ومدن الأندلس الأخرى عقول محبيها . إن صح التعبير. لجمالها الأخاذ من جهة وللميزات التي كانت تتمتع بها، والتي قد لا نجدها في مختلف حواضر الغرب الإسلامي الأخرى، مما جعلها مقصدا للطلبة والعلماء والفنانين من كل حذب وصوب، ومن تلك الميزات نذكر:

- وراثة غرناطة لرصيد حضاري كبير من مختلف المدن الأندلسية الأخرى، التي سقطت قبلها مثل: طليطلة، قرطبة، إشبيلية....، وبالتالي أصبحت غرناطة هي وارثة الحضارة الأندلسية.
- التنوع العرقي والديني فنجد المسلمين والنصارى واليهود جنبا إلى جنب في المدينة الواحدة في ظل حكم إسلامي عادل، كما نجد تنوع إثني مابين عرب وبربر وقوط ومولدين...
- احتواء مدن الأندلس وفي مقدمتها غرناطة على مرافق هامة، ففضلا على المساجد والزوايا والكتاتيب يوجد المدارس والمكتبات والفنادق والحمامات والأسواق وشبكة من الطرق وغيرها [25].

ويضاف إلى العوامل التي ذكرناها أن كلا الدولتين نهلتا من معين ثقافي واحد مستمد من حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور، ثم كلاهما تأثر بالإشعاعات الفكرية والمذهبية ومختلف النظم السياسية والاجتماعية التي عرفتها المنطقتين تاريخيا ولاسيما تأثرهما العميق بالحضارة الإسلامية[26] .

وإن هذه العوامل مجتمعة وغيرها لا يسعنا المجال لذكرها قد ساهمت في ارتحال عدد من علماء المغرب الأوسط نحو عاصمة بني الأحمر غرناطة، أين كانت لهم أدوارا هامة في مختلف المجالات.

3.نماذج من علماء المغرب الأوسط بغرناطة وأدوارهم:

- **الشاعرابن خميس التلمساني (المتوفى سنة708هـ/1309م):**

هو محمد بن عمر بن محمد بن خميس الرُعيني التلمساني المكنى بأبي عبد الله والمشهور بابن خميس، يعد من أكابر الأدباء والشعراء حتى لقب بشاعر المائة السابعة، وأثنى عليه الكثير من العلماء أمثال ابن دقيق العيد حينما اطلع على إحدى قصائده المشهورة،

كما أثنى عليه معاصروه الذين عرفوا تلمسان كابن خلدون أو العبدري [27] إضافة إلى ابن الخطيب الذي وصفه في الإحاطة حين قدومه إلى الأندلس سنة 703هـ بقوله " أنه كان طبقة الوقت في الشعر"[28]، ونوه به الحافظ والرحالة الأديب " ابن رُشيد " حين ذكر فضله الأدبي وتفوقه الشعري بعد مصاحبتهما للوزير ابن الحكيم الرندي مشكلين بذلك مجلسا من المجالس العلمية، وكانت له إسهاماته في الحركة العلمية والأدبية الأندلسية من خلال أشعاره الكثيرة ومعرفته بالعلوم القديمة.

وقد دخل الأندلس أيام حكم السلطان أبو عبد محمد الثالث الملقب بالمخلوع وهذا الأخير عينه مدرسا للغة العربية بجامع غرناطة، ترك لنا ديوان شعر ضخم" الدر النفيس من شعر ابن خميس" ومن أشعاره الخالدة قوله في مدينة تلمسان:

تلمسان جادتك السحاب الدوائحُ وأرست بواديك الرياح اللواقح

وسَح على ساحات باب جياد هامُلِّثٌ يُصاني تُربها ويُصافح[29]

- **الفقيه والمحدث ابن مرزوق الخطيب(710.792هـ/1310.1380):**

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق المشهور بالخطيب، وهو عالم اشتهر في مختلف العلوم الدينية ولاسيما الفقه والحديث، كما اشتهر برحلاته العديدة في البلاد الإسلامية حيث أتيحت له فرصة الأخذ عن أكابر علماء زمانه، واشتهر بالتدريس بعدة مدن لاسيما مدينة غرناطة، وله مصنفات عديدة منها: تعليق على صحيح البخاري، الأربعين في الصحاح، تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام، إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب..[30].

- **ابن الشريف التلمساني(748.792هـ/1347.1390م):**

عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني أحد أبرز علماء تلمسان والمغرب الإسلامي مثل والده الشريف التلمساني، وقد برز في عدة علوم أبرزها علم التفسير وهو الآخر ارتحل إلى عدد من الحواضر أين اشتهر ذكره ومنها غرناطة التي تصدى للتدريس بها وتخرج على يده عدد هام من الطلبة[31].

- **إبراهيم الأنصاري التلمساني(ت690هـ):**

هو إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني يُكنى أبو إسحاق نزيل سبته، كان فقيها أديبا مبرزا في العلوم العقلية كالرياضيات وخاصة علوم العدد، ونظم في الفرائض وهو ابن ثمانية وعشرين سنة أرجوزة محكمة بعلمها؛ ودرس في مالقة بعد أن جاز العدوة مع أبيه وهو ابن تسع سنوات، له مؤلفات في الفرائض والسير والشعر[32].

وفي المقابل برز بنفس الكنية:

- **محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد التلمساني الأنصاري (ت764هـ)** أصله من تلمسان، سبتي الدار رحل إلى غرناطة سنة 718هـ، و ساهم حضاريا فيها بإمامته في مسجد قصر السلطان، وتوليه الحسبة وتنفيد الأرزاق كما نبغ في فنون عديدة كالأدب والقراءات والحديث والتاريخ [33].

- **أبو علي منصور بن علي الزواوي التلمساني المتوفى بعد سنة 770هـ**: كان مشاركا في عدد من العلوم النقلية والعقلية دخل الأندلس بعد منتصف القرن الثامن الهجري ونزل غرناطة أين اشتغل في التدريس بالمدرسة النصرية وكان يحضى بمكانة رفيعة من قبل العامة والخاصة[34].

- **أحمد بن عبد الرحمن التلمساني أبو الفرج (ت895هـ):**

لم يرد الكثير عن ترجمة هذا العالم التلمساني (54) ولم يرد أصلا في الإحاطة رحل إلى غرناطة قبيل سقوطها إلا أنه يمثل أحد أعمدة التواصل الحضاري بين البلدين نظرا لهجرته في فترة غروب شمس الأندلس.

وهو من بيت الشريف التلمساني تتلمذ على يد ابن مرزوق الحفيد، وهو مفسر قاض محدث أصولي من أكابر فقهاء المالكية وقد أفاد أهل الأندلس بعلمه وفتاويه وإسهامه الفكري[35].

وبالإضافة إلى هؤلاء العلماء ممن كان لهم تأثير مباشر في الحياة الثقافية من خلال المناصب الهامة التي تقلدوها، يضاف إليهم عدد من العلماء ممن كان لهم تأثير غير مباشر سواء بمصنفاتهم آو اخذ علماء الأندلس عنهم العلم بتلمسان أو مدنا أخرى أمثال **الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي**[36] الذي كان حجة في العلوم العقلية[37]، وقد أشاد به الأندلسيون كثيرا.

كما أن الكثير من علماء الأندلس كانوا يَستفتُون علماء المغرب الأوسط كلما استَصعَبُوا أمرا أو أُستُشكِلت عليهم مسألة، ومثال ذلك ما كان يفعله العالم الأندلسي الشهير **أبو سعيد بن لب الغرناطي** (ت 782هـ/ 1381م) الذي كان كلما استصعب أمرا أو مسألة بعث إلى **أبي عبد الله الشريف التلمساني(771.710هـ)** ليُوضحها له ويبين له ما أُشكل عليه[38].

وكان لسان الدين بن الخطيب كلما ألف كتابا بعثه **للشريف التلمساني** ليعرضه عليه ويطلب منه أن يكتب فيه بخط يده ويبدي رأيه فيه، والأمر نفسه كان يفعله مع **ابن مرزوق الخطيب**[39]، ومن بين أقواله فيه في إحدى الرسائل التي بعثها لسان الدين بن الخطيب **لابن مرزوق:**

"...**بم أفاتحك يا سيدي وأجل عددي؟ كيف أهدي سلاما فلا أحذر ملاما؟ أو أنتخب لك كلاما فلا أجد لتبعه التقصير في حقك الكبير ايلاما؟....سلام وتسليم وروح ورحمة عليك وممدود عليك من الظل سجسج، ...وما كان فضلك ليمنعني الكفر أن اشكره ولا لينسيني الشيطان أن اذكره فاتخذ سبيلا في البحر سبا او اسلك غير الوفاءمذهبا...**"[40].

والرسالة طويلة جدا وفيها مدح وإشادة كبيرة بعالمنا الجليل ابن مرزوق، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على المكانة الكبيرة التي كان يحظى بها لدى علماء الأندلس وحكامها.

ولم يقتصر التواصل بين علماء البلدين فقط، حيث تذكر المصادر التاريخية أن ابن مرزوق كان على اتصال وثيق بطلبة غرناطة، فكثيرا ما كان الطلبة يبعثون له أسئلة ويطلبون إجابته وفتواه في عدد من المسائل وعلى سبيل المثال لا الحصر حينما حصل نزاع بين طلبة غرناطة حول عدة أمور تتعلق بالطهارة كتب أحدهم برسالة **لابن مرزوق** جاء فيها : " **شيخنا وبركتنا ووسيلتنا إلى الله تعالى سيدي محمد بن مرزوق أدام الله للإسلام حياته....تلميذكم أحمد الحسني لطف الله به وبعد فالذي أطلب منكم النظرفي جوابنا على الفرق بين مسألة المتيمم يطلع عليه إنسان وهو في الصلاة معه الماء يتمادى (يواصل الصلاة)لايقطع**..." [41].

وهذا يدل على المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها علماؤنا لدى طلبة غرناطة، والعمل بفتواهم في أمور كثيرة.

كما لا ننسى العالم **محمد بن أبي بكر المقري الجد(ت759هـ/1358م)** الذي كان يحظى بسمعة كبيرة لاسيما من قبل الحكام وعلى رأسهم السلطان النصري الغني بالله محمد الخامس الذي ألح عليه للإقامة بغرناطة والعمل بها[42].وهو فقيه أديب متصوف، له عدة مؤلفات منها كتاب القواعد في الفقه، و"الحقائق والرقائق" و"المحاضرات" و"إقامة المريد" و"رحلة المتبتل "في التصوف[43].

مكث في مالقة بعد رحلته السِفارية إلى بني الأحمر والتي كانت بين سنتي 756هـ و 757 هـ؛ وقد نزع ثوب السفارة ليتفرغ إلى العلم والزهد حتى أجرى عليه السلطان النصري راتبا. أخذ عنه علماء كثيرون منهم ابن الخطيب نفسه، وبالتالي يكون قد ساهم في الحركة العلمية الأندلسية خلال مكوثه بها.

وإن هذه المراسلات العديدة سواء العلمية منها أو الإخوانية والتي كانت بين علماء الأندلس وأقرانهم من المغرب الأوسط بالإضافة إلى تبادل المصنفات والاستشارة حول مواضيعها لدليل قاطع على علو كعب علماء المغرب الأوسط ومدى تأثيرهم في طلبة الأندلس وشيوخها.

ومن دون أدنى شك أن هذه الصلة الوثيقة التي كانت تربط المغرب الأوسط بالأندلس قبل سقوط غرناطة هي التي جعلت أهل المغرب الأوسط يحافظون على الكثير من مظاهر الحضارة الأندلسية (دون أن ننسى بطبيعة الحال دور الهجرات الأندلسية إلى بلاد المغرب الأوسط) ويتأثرون بها سواء في الجانب العلمي أو الاجتماعي أو الاقتصادي وكذا الفني والعمراني، ولا يزال إلى اليوم يحافظ أهل تلمسان على بعض تلك الموروثات الأندلسية و لا يزال يشكل جزءا من التراث المحلي لا سيما اللامادي منه.

خاتمة:

وخلاصة القول ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن علماء المغرب الأوسط في الفترة المدروسة كانوا على درجة رفيعة من العلم والمعرفة أكسبتهم شهرة كبيرة ببلاد المغرب والمشرق الإسلاميين على حد السواء، وما التراجم الكثيرة لهم في مختلف الكتب الخاصة بالتراجم والطبقات إلا دليل على ذلك الصيت العلمي الكبير، بيد أن دورهم يتجلى بشكل واضح وملموس أكثر من غيره في بلاد الأندلس بصفة عامة ومملكة غرناطة بصفة خاصة للأسباب التي ذكرناها سابقا كالوحدة المذهبية والقرب الجغرافي ومساهمة الموانئ والمراسي الطبيعية في ربط الدولتين، يضاف إلى ذلك تميز العلاقات السياسية والتجارية والثقافية بين البلدين، دون أن ننسى بطبيعة الحال دور الحاضرتين العلميتين تلمسان وغرناطة في استقطاب وجلب مشاهير العلماء والاهتمام بهم.

إن هذه العوامل مجتمعة وأخرى ساهمت في تقوية الروابط والصلات العلمية بين الدولتين وشجعت العلماء على الارتحال وترك بصمتهم الخالدة في مختلف المجالات العلمية، والوظائف التي كُلفوا بها، وقد أضحى لزاما علينا اليوم .أكثر من أي وقت مضى .البحث والتعمق في هذا التراث الضخم، والعمل على تقديمه للدارسين والباحثين وعموم القراء.

الهوامش (الإحالات):

[1] لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2006، ص 33.، أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد البقاعي، ج5، دار الطباعة للنشر والتوزيع، بيروت 1998، ص ص 13.15.

[2] لمزيد من التفصيل حول أسباب سقوط غرناطة وتسليم المدينة وبنود معاهدة التسليم يُنظر: مؤلف مجهول، نبذة العصر في أخبار بني نصر، تعليق ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 40، أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1988، ص 146، جمال يحياوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492.1610، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 37، بوحسون عبد القادر، الأندلس على عهد بني الأحمر دراسة في التاريخ السياسي والثقافي، النشر الجامعي الجديد، تلمسان 2017، ص 74.

[3] عن حكام الدولة يُنظر: ابن الخطيب، أعمال الاعلام، المصدر السابق، ص ص 278، 306، ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط1، مطبعة الموسوعات، مصر، 1901، ص 364، ابن خلدون، العبر، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، بيروت ص ص 218، يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، دار الجيل، بيروت، 1993، ص ص15.55.

[4] ، ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق كمال شبانة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003، ص ص 19، ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج2، ص ص 59، 62، المقري، نفح الطيب، ج5، المصدر السابق، ص 410، المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، د1، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة ، (دت)، ص ص 207.203

[5] بوحسون عبد القادر، المرجع السابق، ص 105

[6] عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط1، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص 14.

[7] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، دار صادر، بيروت، (دت)، ص 262.

[8] مالقة مدينة تقع بجنوب الأندلس ضمن إقليم الأندلس الشرقي الذي كان يضم مالقة ألمرية وجيان...تقع على شاطيء البحر إلى الغرب من مدينة ألميرية ، تعتبر أحدى مدن الأندلس الكبرى نظرا لموقعها الحصين الجامع لمرافق البر والبحر، ينظر: ابن سعيد الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق خليل منصور، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص 218، بوحسون عبد القادر، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، نور للنشر، 2019، ص 107.

[9] المنكب: حصن على ساحل البحر المتوسط بين ألمرية ومالقة كان به دار لصناعة السفن، ينظر: القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 95، الإدريسي، نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص 291.

[10] هنين مدينة صغيرة على شاطئ البحر المتوسط بينها وبين ندرومة الجبل المعروف بتاجرة، بها مرسى على صغره إلا أنه كان من أبرز مراسي المغرب الأوسط لاسيما بعد احتلال الإسبان لمدينة وهران، ينظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشر دوسلان، باريس، 1965، ص 80، حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 16.

[11] أرشكول شاطئ على ساحل البحر المتوسط يعرف حاليا برشقون بولاية عين تموشنت، وعن تعريفه يمكن العودة لحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 16، البكري، المصدر السابق، 78.

[12] المرسى الكبير: هو الآخر من أهم مراسي المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، كان له دور في تسهيل حركة المرور بين الدولة الزيانية والأندلس، وهو غير بعيد عن مدينة وهران، الإدريسي، المصدر السابق، 154.

[13] ينظر: عبد القادر بوحسون، العلاقات، المرجع السابق، ص ص 107 .115.

[14] المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد البقاعي، ج1، دار الطباعة للنشر والتوزيع، بيروت 1998. ص 340.

[15] بوحسون عبد القادر، العلاقات الثقافية، المرجع السابق، ص 97.

[16] أحمد الطوخي، مظاهر الحضارة في الاندلس في عهد بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1997، ص 93، بوحسون عبد القادر، المرجع نفسه، ص 97.

[17] عبد الرحمان بن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، بيروت 2004، ص 497.

[18] يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية للنشر، الجزائر 1980، ص129.

[19] نفسه، ص 205، التنسي، تاريخ بني زيان، المصدر لسابق، ص127.

[20] يحي بن خلدون، المصدر نفسه، ص109.

[21] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، تونس، 1985، ص 376، عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين(3 .14هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 30.

[22] يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص ص 86 .87، المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج8، ص 312.

[23] عبد القادر بوحسون، الوجدة المذهبية ودورها في تمتين العلاقات الثقافية بين دولتي بني زيان وبني الأحمر في الأندلس، مجلة الفسطاط مجلة الكترونية، مصر جويلية 2013.

[24] عن الرحلة العلمية ينظر :ابن خلدون، المصدر نفسه، ص 60، ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، (دت) ، ص 588، بوحسون عبد القادر، العلاقات، المرجع السابق، ص ص 46. 47.

[25] محمد عبد الله الحماد، التخطيط العمراني لمدن الأندلس الإسلامية، ندوة الأندلس، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1996، ص ص 164،163 ، بوحسون عبد القادر، الاندلس على عهد بني الأحمر، المرجع السابق، ص 126.

[26] عبد الحميد حاجيات، العلاقات الثقافية بين تلمسان وغرناطة، مجلة الوعي، العدد المزدوج الثالث والرابع، الجزائر، 2011، ص 73.

[27] العبدري، الرحلة المغربية ، ط2، تح : علي ابراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة و النشر ، دمشق 2005، ص53، ص73، ابن خلدون، رحلة ابن خلدون ،تعليق: محمد تاويت الطنجي،ط1، دار الكتب العلمية ،بيروت 2004، ص54 .

[28] ابن الخطيب،الإحاطة ،ج2 ،ص528 -529.

[29] يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية للنشر، الجزائر 1980، ص 109، المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج8، ص 312.

[30] أبو العباس التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مكتبة الفحامين، مصر 1351هـ، 267، ابن خلدون، الرحلة، المصدر السابق، ص 61، ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء من تلمسان، نشر عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 185، محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، ج8، مطبعة السعادة، القاهرة، 1348هـ، ص 120.

[31] التنبكتي، المصدر نفسه، ص 225، المقري، المصدر السابق، ج7، 152، محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1349، ص 234، عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (3 .14 هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص 31.

[32] ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص ص 326، 328 - مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة 1349هـ ،ج1،ص202.

[33] ابن الخطيب،المصدر السابق، ج3، ص200.

[34] رشيد يماني ، إسهامات علماء تلمسان الفكرية في الأندلس من خلال كتاب الإحاطة لابن الخطيب، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية، جامعة تلمسان، العدد الثاني، جانفي 2015، ص ص 117 .118.

[35] ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان، وقف على طبعه : ابن أبي شنب المطبعة الثعالبية،الجزائر1908، ص 204.

[36] هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي المولود سنة 681هـ/1280 م أصله من آبلة ونشأ بتلمسان، ارتحل إلى المشرق ليعود بعدها إلى تلمسان بعام غزير، قال فيه يحي بن خلدون: فاق أهل زمانه في العلوم العقلية، ولا أعرف بالمغرب وإفريقية فقهيا كبيرا إلا وله عليه مشيخة، وقال فيه لسان الدين بن الخطيب أنه رحلة الوقت في القيام على العلوم العقلية، ينظر: يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 120، ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج2، ص 145، بوحسون عبد القادر، العلاقات، المرجع السابق، ص 87.

[37] ابن خلدون، الرحلة، المصدر السابق، ص ص 40 .41، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 120، ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ج 2 ط1، مطبعة الموسوعات، مصر 1901، ص 145.

[38] المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج7، ص 152.

[39] المقري، المصدر نفسه، ص 152، ابن مريم، المصدر السابق، ص 175

[40] ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1981، ص 144.

[41] أبو زكريا المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق حساني مختار، ج1، نشر مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، 1989، ص 142.

[42] المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج6، ص ص 181 .186، ابن مخلوف، المصدر السابق، ص 232.

[43] ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص ص196 -203. أبو الأجفان محمد الهادي، الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني، الدار العربية للكتاب ،1988، ص17 وما يليها.